تعقيب عام

من خلال السطور السابقة فى عرض النظرية العاطفية للفيلسوف محل الدراسة، يتضح أن رسل يعد رائدًا من رواد النظرية الانفعالية على الإطلاق، وقد تبلور ذلك فى ثنايا هذا الفصل، والأدلة التى تؤكد هذا القول هى النظر إلى التاريخ المدون على كتاباته، حقًا أن رسل كان فيلسوفًا هوائيًا فى فلسفته، ولكن هذا القول لا يعد عيبًا فى فكره، أو يمنعه من أخذ دور الريادة فى مجال البحث الأخلاقى، بل يُكْسِبُه قوةً فكريةً من خلال التغيير والتعديل فى مواقفه، فكان كتابه «الدين والعلم» هو بداية فاتحة للنظرية الانفعالية على الاطلاق، والشاهد الذى يؤكد هذا هو أن الكتاب صدر عام 1935م، قبيل «آير» وغيره من الوضعيين المناطقة الذين كان لهم الدور البارز فى تطوير النظرية، حتى ارتبط اسمها بهذه الحركة، بل كان رسل سابقًا «ستيفنسون» الذى رأى «أن الانفعال هو الشعور، والشعور حالة وجدانية تتكشف طبيعتها بالاستبطان»[1].

ولكن القول الذى ينكر حق الفيلسوف فى هذه النظرية، لا يعدو أن يكون سوى مجرد وجهة من النظر، فرؤية «ميشيل بوترو» التى تقول «أن برتراند رسل يعد من أكثر الشخصيات أهمية فى فلسفة القرن العشرين، حتى فاقت أهميته كل من «آير» و«ستيفنسون»، ولكن لم يرتبط اسمه فى الواقع بشكل كبير بالنظرية الانفعالية، ولا بالفلسفة الأخلاقية على الإطلاق، لذلك لا يحق القول أن رسل كان له سبق التبكير فى النظرية الانفعالية قبل كل من «آير» و«ستيفنسون»[2]. فى حين أنه يقول أيضًا «وبعبارة أخرى يمكن اعتبار رسل عالم أخلاق نشط An Active Moralist لأنه لم يكن فيلسوفًا أخلاقيًا، حيث يفترض دائمًا أن يقوم الآخرون بمشاركته فى آرائه الأخلاقية»[3]. بل أن ما ذكرته الموسوعة الفلسفية «ستانفورد» يعد إجحادًا لفكر رسل الأخلاقى، حيث رأت «أن رسل كان ذا شهرة واسعة بوصفه رجلاً أخلاقيًا Moralist وكذلك فيلسوفًا، إلا أنه لم يكن لديه هذه الشهرة العظيمة بوصفه فيلسوفًا

(1) سحبان محمود الحمدان خليفات: لغة الأخلاق، مرجع سابق، ص589.

(2) Michael K. Potter: Bertrand Russell`s Ethics, op.cit, p.1.

(3) Ibid: p.2.

أخلاقيًا Moral Philosopher بالمعنى التقنى لهذا المصطلح، فى حين أنه نال شهرة عظيمة بوصفه المنطقى والميتافيزيقى، وفيلسوف الرياضيات»[1].

وهذا يمثل رؤيةً لكاتب فقط أو ناقد لفلسفة ما، وبالتالى لا تعدو أن تكون هذه الرؤية موضع صدق، لأن فيلسوفنا ذو عبقريةٍ أخلاقيةٍ متميزة، وأسلوبٍ فكرى فذ، وذكاءٍ خارقٍ للعادة، بل وأيضًا صاحب أسلوب فلسفى لامع وبراق، والدليل على ذلك أنه لم يكن هناك عام يمضى، إلا ولرسل بصماته البارزة لهذا العام من خلال كتاباته، التى مست بالفعل واقع الحياة الفلسفية المعيشة، حتى أصبحت فلسفته الأخلاقية، بمثابة الفلسفة التطبيقية التى يمكن لأى إنسان أن يحتويها فى عقله.

ومن جهة أخرى، تعد نظرية رسل الانفعالية جديرةً بالدراسة والتحليل، لأنها جاءت بنفس المنهج التحليلى التصورى للميتا أخلاق، ولكن اختلفت فى ردها للحكم الأخلاقى إلى الرغبة، والذاتية المتغيرة، بل كانت نظرية وجدانية من الطراز الأول كما عبرت عن ذلك أيضًا الوضعية المنطقية، ولكن الحكم على قبول النظرية الأخلاقية هذه لم يكن حكمًا قائمًا على حقائق الإدراك، ولكنه حكمٌ يعتمد بطريقة أو بأخرى على العواطف Emotions والمشاعر Feeling التى تسمو لمفاهيم الصواب والخطأ، والخير والسيء[2]. ولكن لم تنجح النظرية الانفعالية فى أن تصل إلى صواب أو خطأ الأحكام الخلقية، لأنها كانت مجرد رغبة أو عاطفة منفعلة بالحب حينًا أو بالكراهية فى أوقات الغضب.

وأضف إلى ذلك، أننا لو أردنا تقييم نظرية الرغبة أو الاهتمام الأخلاقى، فإننا لابد أن نذكر عيوب هذه النظرية كما ذكرنا ميزاتها الانفعالية، أولها أن نظرية الرغبة لا تحدد الكيفية الأصيلة لوجود القيمة، بل أغفلت الدور الرئيسى لحكم القيمة، كما أنها لا تعطى وصفًا دقيقًا لتصور القيمة فى كونه معبرًا عن علاقة أخلاقية[3].

(1) Stanford Encyclopedia of Philosophy, At:
http://plato.stanford.edu/entries/stevenson/ (21/4/2012)

(2) John L. Mckenney: Concerning Russell`s Analysis of Value Judgments, op. cit, p.382.

(3) Sidney Zink: The Concepts of Ethics, op. cit, p.73.